

٤ - الأحلام

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

بقلم الأستاذ أليير نادور

أين الفرق بين اليقظة والحلم ؟

ما هو النوم ؟ إلى لا أنسأل طبعاً ما هي الشروط الجسمية للنوم - هذا أمر يبت فيه الأطباء ولم يفصل فيه بعد . أنسأل كيف يجب أن نتصور الحالة النفسية لرجل نائم لأن النفس تستمر في العمل أثناء النوم . فالنفس - كما سبق أن ذكرنا - ناعمة كانت أو يقظة ، تربط الإحساسات بالذكريات التي تدعوها - وآلية العمليتين تبدو واحدة في الحالتين : حالة اليقظة وحالة النوم - ولكن يوجد الإدراك الطبيعي من جهة والحلم من جهة أخرى - فآلية العملية لا تقوم بنفس العمل في الحالتين ، فأين الفرق إذا ؟ ما هي الميزة النفسية للنوم ؟

دعونا ، لا نثق كثيراً بالنظريات . يقولون إن النوم عبارة عن انفراد عن العالم الخارجي ، ولكننا بينا أن النوم لا يمنع الحواس تماماً من التأثيرات الخارجية ، ولكنه يستمد منها مادة الكثير من الأحلام . ثم بينا أن وظائف العقل السامية أثناء النوم تستريح ويتسبب عن ذلك توقف في التعقل . لا أظن أن الأمر كذلك . إننا أثناء الحلم نصبح غير مكترئين بقوانين المنطق ؛ ولكننا لا نكون عاجزين عن كل منطق ، وأكثر من ذلك ، وهنا أخشى أن أدهشكم ، أن ذنب النائم هو أنه يعقل أكثر من اللازم . والنائم يتجنب المحال إذا كان مجرد مشاهد لاستعراض رؤياه - ولكنه عندما يريد ، بقدر استطاع أن يعبّر عنها ، يكون منطقاً المخصص لربط الصور البهيمية بعضها ببعض غير قادر إلا على تقليد منطق العقل ، ويتلمس حينئذ المحال . نعم إن وظائف العقل السامية تنحل أثناء النوم ؛ وإن ملكة التعقل تلهو أحياناً بتقليد التعقل الطبيعي ولو لم تشجعها على ذلك الصور المتماثلة . ويمكننا أن نعمم هذا القول فيما يخص الملوكات الأخرى . إننا لا نملل الحلم بأنعدام التعقل ولا بإغلاق الحواس ولنترك جانب النظريات وننصل مباشرة بالواقع يجب أن نقوم باختبار حاسم في أنفسنا . فند ما نخرج

من الحلم سنراقب انتقالنا من حالة النوم إلى حالة اليقظة ، إذ أننا لا نستطيع أن نحلل حالتنا أثناء الحلم نفسه . ولنتبع هذا الانتقال بقدر استطاع - لنوجه التفاتنا إلى حالة عدم انتباه عندنا ، ولناخذ على غرة الحالة النفسية للإنسان لم يزل نائماً ، ولكنه في طريق اليقظة . نعم إن هذا العمل عسير ولكنه ليس بالمستحيل لمن صبر نفسه عليه بكل صبر . اسبحوا لي أن أقص عليكم حلاً من أحلامي وأقول لكم ماذا ظننت عندما استيقظت . ظننت أنني على منبر أخطب حشداً من الناس ، فصعدت منصة مبهمة من مؤخرة المستمعين ، ثم أخذت في الوضوح ؛ وأصبحت رعداً ، ثم نباحاً ، ثم نحيجاً نظيماً - ثم دوى من كل جانب وعلى وتيرة منظمة صراخ يقول : إلى الباب إلى الباب . استيقظت فجأة عندئذ - وكان كلب ينبس في الحديقة المجاورة ، وكلما كان يعوى كان الصراخ القائل : إلى الباب يخرج بكل عوبة من عواء الكلب - هذه هي اللحظة التي يجب انتهازها . فنتخصية اليقظة التي ظهرت الآن تتحول نحو شخصية الحلم التي لم يزل موجودة وتقول لها : « أقبض عليك متلبسة بجرمك ؛ تظهرين لي حشداً يصرخ وليس هناك إلا كلب يعوى لا تحاول الهروب . إني قابضة عليك . ستدائين لي برك وأمرك - ستدعيني أرى ماذا كنت تصنعين » وشخصية الحلم تجيب قائلة : أنظري ! إني لم أكن أفعل شيئاً ؛ ولأجل ذلك كانت شخصيتان مختلفتين ، فتقول لها شخصية اليقظة : أنظري أنك لا تفعلين شيئاً وأنا أسمع كلباً ينبس وأفهم أن من ينبس هو كلب ؟ إنه لضلال ميين ... أنت تبدئين مجهوداً كبيراً بدون أن تشعري بذلك - يجب أن تجمع كل ذاكرتك وكل تجاربك التراكمية وتقودها بواسطة حصر مفاجيء حتى لا تقدم للصوت الذي تسمعه سوى جزء من هذه الذاكرة أعني الذكرى التي تكون أكثر شبيهاً بهذا الإحساس والتي يمكنها أن تعبّر عنه أحسن تعبير : حينئذ تغفل الذكرى الإحساس . ثم يجب أن تكون هناك الموافقة التامة حيث لا يترك أي فرق بين الذكرى والإحساس (وإلا فتكونين في حالة حلم) .

لا يمكنك أن تضمن هذه المطابقة وهذه الموافقة التامة إلا بواسطة الانتباه أو بالأحرى بواسطة مجهود مشترك من قبل الإحساس والذاكرة . هكذا يفعل الخياط عندما يجرب لك رداء قصيراً فقط ، فهو يضع الدبايس ويشد بقدر الإمكان القماش على

أخرى كثيرة إذا تركنا لها المجال لذلك . لكن لقد حان الوقت للوصول إلى نتيجة . ما هو الفرق الجوهرى بين الحلم واليقظة ؟ سنلخص ماسبق قائلين إن القوى نفسها تعمل سواء كنا في حالة اليقظة أو في حالة الحلم . فقط في الحالة الأولى تكون هذه القوى منحصرة وفي الحالة الثانية تكون منطلقة

الحلم هو الحياة العقلية بأكملها ينقصها مجهود المحصر . فلا تزال ندرك ولا تزال نتذكر ولا تزال نعمل . والحالم يمكنه أن يدرك ويتذكر ويعمل كثيراً . والإكثار في هذه العمليات لا يعنى أن النفس تبذل مجهوداً لأن ما يتطلب المجهود إنما هو الدقة والتأنى في الانسجام . فنحن لا نعمل شيئاً ولا نبذل أى مجهود ليرتبط نباح الكلب صدفة بذكرى حشد متفجر ، ولكن يجب بذل مجهود فعلى حتى يتصل هذا النباح بذكرى نباح الكلب وحتى يمكننا التعبير عنه أنه فعلاً نباح . ولكن لم تبق عند الحالم أى قوة لبذل هذا المجهود ، فبذلك وبذلك فقط يتميز الحالم عن اليقظان

هذا هو الفرق ونحن نمر عنه بطرق مختلفة . وإني سأجنب التفاصيل ؛ فقط ألفت نظركم إلى نقطتين أو ثلاث وهي : عدم استقرار الحلم ، والسرعة التى يمكنه أن يسرد بها ، والأفضلية التى يعطيها للذكريات النائمة

من السهل التعبير عن عدم الاستقرار ، إذ أن الحلم من خاصيته ألا يجعل الإحساس ينطوى تماماً على الذكرى ، بل يترك في ذلك مجالاً للعب ، فعليه يمكن للذكريات مختلفة تمام الاختلاف أن تنطبق على الحلم . إليك مثلاً بقعة خضراء منتشرة عليها نقط بيضاء ، وذلك في حقل البصر . فيمكنها أن تحقق ذكرى جزء مزدهر في حديقة أو ذكرى مائدة لعب السكرات مع كراتها ، أو أشياء أخرى كثيرة . وجميع الذكريات تريد أن تعود إلى الحياة في هذا الإحساس وكلها تعدو وراءه . ففى بعض الأحيان تبلغه الواحدة تلو الأخرى ، والجزء المزدهر في الحديقة يصبح مائدة لعب السكرات ، ونشاهد حينئذ تطورات مذهشة . وفى بعض الأحيان تبغى جميعها فيصير الجزء المزدهر مائدة لعب السكرات ، ويحاول الحالم أن يرفع عنه هذا التناقض بواسطة تفكير يزيد في دهشته

أبيير نادم

(البقية في العدد القادم)

الجسم حتى ينسجم عليه تماماً . وحياتك في حالة اليقظة هي حياة عمل وإن ظننت أنك لا تعملين شيئاً . وذلك لأنه يجب عليك في كل لحظة أن تختارى وأن تعزلى . إنك تختارين بين إحساساتك لأنك تبعين عن الوجدان آلاف الإحساسات الشخصية التى تعود إلى الظهور حينما تنامين . إنك تختارين بكل دقة وتأن من بين ذكرياتك بما أنك تبعين كل ذكرى لا تنسجم وحالتك الحاضرة . هذا الاختيار الذى تقومين به بلا انقطاع ، وهذه المطابقة (بين الذكريات والحالة الحاضرة) المستمرة والدائمة التمدد هما الشرط الأساسى لما يسمونه الصواب . ولكن المطابقة والاختيار يجعلانك في حالة إجهاد غير منقطع أنت لا تشعرين به في الحال كما أنك لا تشعرين بالضغط الجوى ولكنك تتعبين إذا ما طال . والصواب متعب جداً

« لقد قلت لك توأ : إني أتميز عنك لأنى لا أفعل شيئاً . والمجهود الذى تبذلينه بدون انقطاع أنا أمتنع فقط عن بذله . أنت تتمسكين بالحياة وأنا أنفصل عنها . لم أعد أكرث بشيء ولا أهتم بشيء . النوم عدم اهتمام ونحن نيام بقدر ما نكون غير مباليين . الأم النائمة بجانب طفلها ألا تسمع قصص الرعد ، بينما تهدئة واحدة من تهدات طفلها توقظها . فهل كانت قافلة (نائمة) حقاً بالنسبة لطفلها ؟ إننا لا نفعل عما يزال يهمنى »
« سأليني عما أفعل عند ما أحلم ؟ سأقول لك ماذا تفعلين أنت أثناء اليقظة . تأخذيننى أنا شخصية الأحلام ، أنا مجموعة ماضيك وتقوديننى ، مضيق على الخناق ، حتى تحصرينى داخل الدائرة الضيقة التى تحيطينها حول عملاك الحالى ، هذه هي حالة اليقظة : الحياة النفسية الطبيعية ، الجهاد ، الإرادة . أما الحلم فهل أنت بحاجة لأن أعبر لك عنه ؟ إنها الحالة التى تلاقين فيها نفسك في حالتها الطبيعية عند ما تتركينها على غاربها ، عند ما تهملين خصرها في نقطة واحدة ، عند ما تكف الإرادة عن العمل . وإذا ألححت أو أصررت في طلب شرح أى شيء فسلى كيف تعمل إرادتك في أى وقت من أوقات اليقظة حتى يمكنها أن تحصر كل تحمله فيك في نقطة واحدة تهلك وذلك بدون أن تشعرى وأسأل بجاء حينئذ حالتك النفسية وقت اليقظة ، ووظيفتها الأساسية أن تهيئ لك لأن اليقظة والإرادة شيء واحد »
هذا ما تقوله شخصية الأحلام ، وإليها لنقص علينا أشياء